فى الخطـــابة

للأستاذ عبد المجيد نافع

كانت الخطابة ولاتزال من أقوى وسائل الاقناع ، وهى أفعل فى النفوس من الكتابة ؛ وشتان بين الكلام الحى والكلمات الجامدة ؛ وإذا كان الكاتب يعرض عقله ومنطقه فان الخطيب يبلغ موضع الاقناع من نفوس السامعين بروحه ، ويطبعهم بطابع شخصيته . ولا شك أن لروح الاجتماع أثرها فى النفوس ، فقد فرغ علماء النفس من تقرير أن الفرد فى الجماعة أشد قابلية للتأثر ، وأعظم اندفاعا فى طريق الحماسة ، ولذلك ترى بعض الناس إذا خلوا إلى أنفسهم ، وتخلصوا من حماسة الجماعة فقرأوا فى هدوء الخطب التى سبق لهم سماعها عجبوا كيف كان لهذا الكلام العادى المبتذل كل هذا الأثر البليغ فى نفوسهم . ولا تنس أن للبيئة والظروف المحيطة والذكريات المثارة أثرها الفعال فى النفوس . وليس من يمارى فى أن المرحوم سعد باشا كان فى طليعة الخطباء ؛ شخصية بارزة ، وذهنية خصبة ، وعقلية جبارة ، وبديهة حاضرة ، ولفظ مختار ، وقدرة على الارتجال لا تجارى ولا تبارى ، ولكن لا تعتقد أن هذه المواهب مجتمعة كانت هى وحدها العناصر المؤلفة لشخصية « سعد الخطيب » . وإنما كان سعد إذا نهض يخطب نهضت معه الذكريات ، وتراءت حوله المثل الوطنية العليا . كان سعد إذا خطب ثارت أمام الخواطر ذكريات مالطة ، وسيشيل ، وجبل طارق ؛ والحرية المسلوبة ، والاستقلال المغصوب ، والضحايا والشهداء الذين بذلوا أرواحهم وأراقوا دماءهم فى سبيل الحرية والاستقلال . والخطب الخالدة فى التاريخ التى ألقاها عظماء الرجال تستمد قوتها وخلودها من عظمة شخصياتهم ورهبة المواقف التى كانوا يقفونها ، أكثر مما تستمد هذه القوة وذلك الخلود من قيمتها الذاتية . ولو أنك عرضتها على محك النقد الصادق ، وحللتها فى ضوء المنطق والمعقول ، لوجدت أنها لا تكاد تجاوز دائرة غيرها من الخطب المألوفة . وإنما أثار طارق بن زياد الحمية فى نفوس جنوده حين أهاب بهم : « العدو أمامكم والبحر وراءكم ... » لا بجمال الصورة وروعة التمثيل وحدهما ، وإنما أثارها بشخصيته العظيمة ، والموقف التاريخى الذى كان يقفه . وإذ هتف نابليون فى جنود حملة ايطاليا غداة المعركة التى اشتبك فيها مع جنود النمسا فحققهم فى سهول لومباردیا : « إن الحكومة مدينة لكم بالشىء الكثير ، ولكنها لا تستطيع أن توفيكم حقوقكم ، واليوم ترون أمامكم الثراء والمجد » . نقول إن روح نابليون وموقف الجند هما اللذان أضرما فى نفوسهم جذوة الحماسة أكثر مما أججتها كلمات نابليون . والزعيم الشاب مصطفى كامل حين أرسل الصيحة الخالدة : « بلادى ! بلادى ! لك حبى وفؤادى » تغلغلت فى نفوس المصريين ، لأنها خرجت من أعماق نفس وطنية مخلصة ، ونفذت إلى أعماق قلوب تؤمن بالحرية وتدين بالاستقلال . وإن نظريتنا لتصبح بمأمن من كل معارضة ، وبنجوة من أى نقد ، إذا ذكرت أن الخطيب العظيم يُسمع ولا يقرأ ، وأن الخطب الخالدة فى التاريخ لا تكاد ترتفع فوق المستوى العادى

كان للخطابة فى الماضى شأن أى شأن ؛ فقد ثلت عروشا ودكت دعائم ممالك ، وأقامت عروشا وممالك مكانها ، ونصرت أقواماً وخذلت آخرين ، وقبرت دعوات وبعثت أخرى ، ودفنت مبادئ وأحيت غيرها . وإنما تبلغ الخطابة شأوها وتصل إلى أوج مجدها إبان الثورات والفورات والهبات والانقلابات والفتن السياسية والاجتماعية وأطوار التحول والانتقال . ذلك بأن غليان النفوس وثورة الأفكار يجعل الناس كالهشيم اليابس الذى تكفى شرارة واحدة لاضرام النار فيه ، وإذا كان هذا هو شأن الخطابة فى الماضى فلا شك أن شأنها قد ارتفع ، وأثرها قد تضاعف فى عصر الديمقراطية الحديث

وفى الواقع أن الخطابة أقوى أداة من أدوات النضال السياسى والتطاحن الحزبى ، وكل حزب بحاجة إلى بث دعوته وترويج سياسته ، والهتاف بمبادئه ، وكسب الأنصار واجتذاب الأشياع . وهو يتوجه إلى جمهور متباين العقليات مختلف المشارب والمشاعر ، جم النوازع والأهواء ، فلا مندوحة للخطيب عن قوة الشخصية وسحر البلاغة ، والالمام بنفسية الجماعات ليبلغ مكان الاقناع من نفوسهم . ولا بد للدعوة ، سواء أكانت

سياسية أم اجتماعية أن تبلغ الكوخ والقصر ، وتصل إلى أدنى الطبقات وأسماها . والديمقراطية الحديثة أتاحت لكل رجل مهما كانت الطبقة التي نبت فيها ، والبيئة التي نشأ بين أحضانها أن يصل بمواهبه وكفايته وملكاته وجهوده إلى أسمى مناصب الدولة ، وهو إنما يتخذ من اكتناف الجماهير سلما يصعد عليه إلى قمة السلطة وذروة المجد . أرأيت إلى لويد جورج وهتلر ومصطفى كمال وموسوليني كيف بلغوا مكان الزعامة من أقوامهم ، ومركز السلطان من شعوبهم ؟ ليس من ينكر أن الخطابة كانت أحد العناصر البارزة في تكوين نجاحهم . ولقد بات الكلام في الجماهير فناً يحرص الزعماء والقادة على اتقانه وتجويده ، وأضحى التعبير عن إجادة الكلام يدل دلالة صريحة على مبلغ القوة والسحر الكامنة في ثنايا الكلام الخلاب ، أو لا تذكر قول الرسول عليه صلوات الله وسلامه : « إن من البيان لسحرا » ؟ ثم ألا يسترعي نظرك تحولهم هذا من ملوك الكلام وذاك من أمراء البيان ؟ ولو أنك رحت تفتش في تاريخ معظم القابضين على زمام الشعوب والآخذين بأعنة السلطة القائمين على مصاير الأمم لوجدتهم من الخطباء المصاقع والمداره المقاويل . فالوزراء في انجلترا وألمانيا وفرنسا وايطاليا وغيرها من دول الغرب جلهم إن لم يكن كلهم من الخطباء المفوهين

بل لقد أصبحت الخطابة هي الوسيلة التي تسمو بصاحبها إلى أسمى مناصب الدولة ، وتبوئه مكان الزعامة من أمته ، حتى ضاق خصوم الخطباء بنفوذهم صدرا وتبرموا بتضخم سلطانهم ، فتراهم ينعون على الديمقراطية الحديثة طغيان حكومات المحامين عليهم

طغت موجة الخطابة على الأمم في العصر الحاضر حتى لترى بعضهم ينسب مصـــدر المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحاضرة إلى نقص في كفاية المتولين لزعامة الأمم الذين لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بتزويق الكلام ، وتنميق العبارات . ولا يرى هذا البعض دواء لداء المدنية الغربية إلا بالعـدول عن الاسترسال بالثقة إلى تجار الكلام ، وتفويض الأمور العامة إلى الفنيين من ذوي الكفايات

والمعارك الانتخابية هي الميدان الفسيح لتجلي المواهب الكلامية ، والملكات الخطابية . ولا بد من تعمق في درس نفسية الجماعات وتفهم ميول الجماهير لكفالة النجاح في ميدان النضال الانتخابي . ولذلك ترى بعض الخطباء لا يتورعون عن بذل الوعود والاسراف في المعهود . بل إنك لترى بعض زعماء الأحزاب وقادة الهيئات لا تتراجع ضمائرهم أمام تصوير الخيالات حقائق والمستحيل ممكناً مستطاعاً . والنظام البرلماني الحديث يتطلب نجاح أكبر عدد ممكن من مرشحي الحزب الذي يخوض غمار المعركة الانتخابية لانجاح فرد أو أفراد . فقد تعددت الأحزاب والهيئات في أمم الأرض جميعاً . وإذا كانت تختلف في البرامج والميول الشخصية ، فنجاح حزب من الأحزاب بالأغلبية في الانتخابات له أهميته وخطره . فاذا كانت التقاليد البرلمانية تقضي بأن الأغلبية هي التي تتسلم مقاليد السلطة ، وتتولى زمام الحكم ، وتوجه السياسة العامة ، فنجاح هذا الحزب أو ذاك في الانتخابات له أهميته لأنه يدل على طريقة الحكم ، وأسلوب إدارة شؤون الأمة ، والطابع الذي تطبع به سياسة الدولة . وليس يستوي أن يكون على رأس الأحكام في انجلترا حزب المحافظين ، أو حزب الأحرار ، أو حزب العمال ، فلكل حزب أسلوبه في الحكم ومبدؤه في السياسة العامة . كذلك ليس من الظواهر التي لا تسترعي النظر أن يكون على رأس الحكومة الفرنسية المسيو ليون بلوم أو المسيو بيير لافال

ودور النيابة هي ميدان يتبارى فيه الخطباء السياسيون كل يحاول كسب الأصوات وجذب الأنصار إلى جانبه ، وإذا كان أحد البارزين في مجلس العموم البريطاني قد قال : « إن الخطب البرلمانية تغير رأيي ولكنها لا تغير صوتي » ، فلا يمنع أن للخطابة شأنا أي شأن في مجالس النواب . أو لم يكن كليمنصو يسقط وزارة بخطبة حتى لقبه مواطنوه الفرنسيون بالنمر وأسموه « هدام الوزارات » ؟ أوليس ينقذ سفينة الوزارة من الغرق خطبة من تلكم الخطب الخالدة الموفقة ؟ أرأيت كيف أن بريان يوم ضيق عليه خصومه الخناق واستجوبوه في مجلس النواب عن تصرفه إزاء العمال المضربين حين أنذرهم بالتجنيد إن لم يكفوا عن الاضراب ، نقول أرأيت كيف أن بريان انتزع تصفيق المجلس وحصل على قرار الثقة بوزارته حين لوح بيده صائحاً من أعماق نفسه : « هذه يدي فانظروا إن كانت تلطخها قطرة من الدماء ! »

وهل من يجادل فى أن القادة فى المجالس النيابية يتجاذبون الأغلبية ، ويبذلون الجهود الجبارة لانحياز الأنصار إلى صفوفهم ؟ بل إن غزو السلطة والتنازع على الحكم وشهوة السلطان ، لتهدد فى بعض الأمم بالتقلقل الوزارى ، والخطابة بلا ريب ، سلاح من أسلحة النضال

ولا تستطيع المعارضة أن تؤدى واجبها فى النقد البرىء النزيه حيال الأغلبية القابضة على زمام السلطة إلا بالكلام . بل لا يستطيع أى مجلس نيابى أن يقوم بواجبه المقدس فى الاشراف والهيمنة على السلطة التنفيذية بغير الخطب الداوية . صحيح أن خطباء المجالس لا ينبغى لهم أن يحرصوا فى خطبهم البرلمانية على ارضاء الجماهير وتملق شعور الجماعات ، وإنما لا بد لهم من الكلام المستمد من الشعور ومن الدرس العميق ومن مصلحة البلد ليؤدوا أمانة النيابة عن الأمة . لقد كان خصوم لامرتين يتهمونه ظلماً بأنه « يتكلم من النافذة » : أى يرمى بخطبه البرلمانية الى إسماع صوته للجماهير خارج المجلس . ولكن الرجل كان بريئاً مما افتروا عليه ، وإنما كان حراً فى عقيدته ، مستقلاً فى رأيه ، غير فان فى شخصية أحد ، ولا واقع تحت سلطان حزب من الأحزاب ؛ ولذلك كنت تراه تارة يؤيد بيتر ، وطوراً يؤيد جيزو على بعد الشقة بين السياستين ، ولم يكن يأخذ عليه المنصفون شيئاً لأن الرجل جعل قبلته الحق ومصلحة الوطن

وإذا كانت الخطابة سلاح المعارضة فى الهجوم ، فهى كذلك سلاح الأغلبية فى الدفاع ؛ وليس أمتع من قراءة الخطب التى يلقيها مصاقع الخطباء البرلمانيين فى الغرب كرّاً وفرّاً وهجوما ودفاعا ، ناهيك بسماعها ! وهل أروع وأبدع من قراءة خطب بت وفوكس ودزرائيلى وجلادستون ولويد جورج وبريان وڤيڤيانى وجوريس ؟ كان عام ١٩٠٦ أول عهد كليمنصو بالدخول فى الوزارة ؛ ولطالما مزق النمر الفرنسى وهو فى المعارضة خصومه تمزيقا ؛ وأصبح وزيراً للداخلية وأمست سياسته حيال العمال المضربين هدفاً يصوب اليه الحملات جماعة الاشتراكيين ، وعلى رأسهم جوريس ، وجوريس مدره مفوه ؛ بل لقد ذهب بعض المؤرخين الى اعتباره أعظم خطيب فى القرن التاسع عشر فى أوربا بأسرها . ووقف كليمنصو فى وجه العاصفة الاشتراكية لا يجد الروع سبيلاً الى قلبه . ثم صاح صيحته : « لقد لمست فى الحال أن الحملة تنطوى على الرغبة فى ذبحى على مذبح الاشتراكية ، لكن وا أسفاه ! فانى لست من تلك الضحايا المستسلمة ، المستعدة لتقديم أعناقها البريئة طائعة الى سكين القصاب . إنى لأقاوم وأقاتل . إنى لأصيح وأتمرد ، وما حفزنى الى اعتلاء المنبر إلا الرغبة فى إرسال صيحة الاحتجاج »

والمؤتمرات السياسية وغيرها هى الأخرى مجال فسيح لظهور المواهب الخطابية

على أنى أحب ألا يفهم أن قولى ينصب على الخطابة السياسية ، والخطابة السياسية وحدها ، ففى دور القضاء تتجلى الخطابة القضائية ؛ وترى بين المحامين وأصحاب الدعوى العمومية والجالسين فى كراسى الاتهام الخطباء المصاقع وأمراء الكلام ، لكن لا ينبغى أن ننسى أن لون البلاغة السياسية يفترق عن لون البلاغة القضائية وإن كانا يتفقان فى الغاية وهى الوصول الى مكان الاقناع من النفوس . ومن الطبيعى أن تختلف هذه عن تلك ، فالجمهور غير الجمهور والبيئة ليست هذه البيئة . وفارق بعيد بين أن تخاطب قضاة مرنوا على سماع مختلف الكلام حتى لا يخدعوا بالمزوق المنمق منه وبين جمهور محدود المواهب والملكات . وشتان بين موقف محام درس ملف قضيته وتأهب للرد على كافة حجج الخصوم ، واستمد تمام الاستعداد لدفع اعتراضاتهم ، وبين خطيب برلمانى أمامه خصوم ومنافسون ، وتنهال عليه الاعتراضات والمقاطعات من كل جانب . ومهما يكن من شىء فالبلاغة هى البلاغة ، وسحر البيان هو سحر البيان ، ولا بد من التدرع بالبديهة الحاضرة والتذرع بالدرس العميق وعدم الاعتماد على شقشقة الكلام

ولا نرى مندوحة عن أن ندرج المحاضرات العامة تحت كلمة الخطابة فالمراد هو الكلام فى الجماهير

ولم يخل عصر من العصور من الخطباء المصاقع الذين يملكون أعنة البلاغة . فلقد عرفت جزيرة العرب خطباء مفوهين من أمثال قس بن ساعدة الأيادى ، وعلى بن أبى طالب ، وزياد بن أبيه ، والحجاج الثقفى ، وسحبان وائل ، وغيرهم وغيرهم . وديموستين اليونانى أبقى على الأيام من الأيام ، وشيشرون الرومانى